تأملات أدبية

فى بعض السور المكية

الدكتور

السيد عبد الحليم محمد حسين

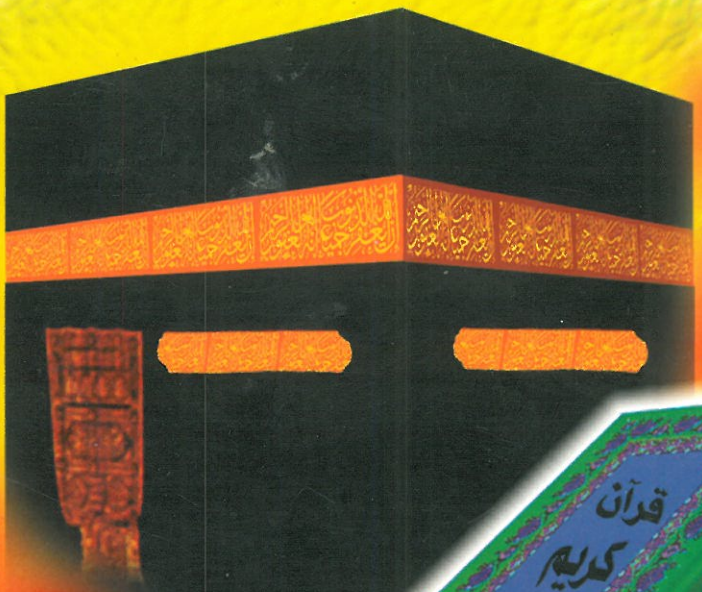

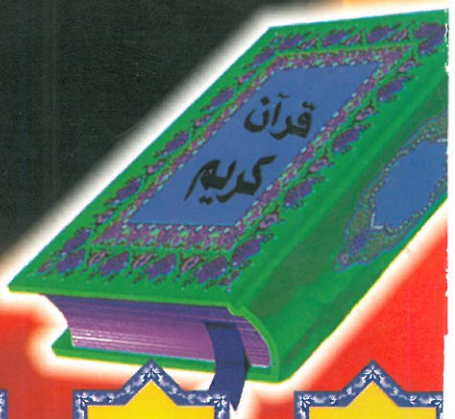

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحاقة — البروج — الضحى — العاديات

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تأملات أدبية
في بعض السور المكية

الدكتور
السيد عبد الحليم محمد حسين

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع: ١٠٣٠٣ / ٢٠٠٠

I. S. B. N.: 977 - 338 - 002 - 5

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تقديم

كتاب الله الخالد، منهل عذب للمعارف، ونمير لا ينقطع لأولى العلم والمعرفة، يخوض فى أطيافه أولو النهى، وأصحاب العقول النيرة.. فيرون من آثار آياته المعجزة دلائل البيان التى لا تنقطع، وآثار الحق الناطقة بعظمة بارئ السموات والأرض.

وفى هذه الرسالة...

قطوف دانية، من ثمار الأدب التعبيرى، والبلاغة الفائقة التى تنطق بأن منزل الكتاب تحدى عقول البشرية قاطبة أن تأتى بمثله أو مثل بعض آيات منه، ذلك لأنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

أردت بها إثراء الفكر الإنسانى بدلائل البلاغة القرآنية. والله ينفع قارئه وناشره.

الدكتور

السيد عبد الحليم محمد حسين

شبكة الألوكة - قسم الكتب

من بلاغة القرآن الكريم

سورة الحاقة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ

صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿

شرح الألفاظ:

الكلمة	معناها
الحاقة	من أسماء القيامة، وسميت بذلك لتحقق وقوعها
القارعة	من أسماء القيامة أيضًا، وهى تقرع القلوب بأهوالها.
ثمود وعاد	من القبائل العربية البائدة.
الطاغية	الصيحة المصعقة المدمرة
ريح صرصر	شديدة الصوت، شديدة البرد
عاتية	بالغة منتهاها فى الشدة
سخرها	سلطها
حسومًا	متتابعة غير منقطعة

الكلمة	معناها
صرعى	جمع صريع، أى هلكى ملقين على الأرض.
المؤتفكات	قرى كان يسكنها قوم لوط عليه السلام.
الخاطئة	الفواحش والرذائل والمعاصى.
أخذهم	أنزل الله بهم العذاب.
رابية	زائدة فى الشدة، وهى من الربا أى الزيادة.
طغا	زاد واشتد وتجاوز كل حد: وهو الطوفان.
الجارية	سفينة نوح عليه السلام.
تذكرة	عبرة وعظة.
تعيها	تحفظها وتتفهمها.
واعية	حافظة لما تسمع، منتفعة به.
نُفخ فى الصور	هما نفختان: الأولى لانتهاء الحياة الدنيا، والثانية للبعث وحشر المخلوقات للحساب والجزاء.
دُكتا	حُطمتا ودُقتا دقا.
انشقت السماء	اختل نظامها واندثرت أجزاؤها من مجرات ونجوم وكواكب
واهية	ضعيفة بائدة مندثرة.
الملك	الملائكة
أرجائها	أبعادها وجوانبها
تعُرضون	تقفون بين يدى الله للحساب ثم الجزاء

الكلمة	معناها
أُوتى كتابه	أُعطى صحيفته التى سجلت فيها أعماله فى الدنيا.
هاؤم	خذوا
ظننت	علمت وأيقنت
عيشة راضية	عيشة مرضية هى الخلود فى النعيم والرضوان.
دانية	قريبة التناول ميسرة الحصول.
بما أسلفتم	بما قدمتم من الطاعات والصالحات فى الدنيا.
الأيام الخالية	الأيام الماضية الفانية التى قُضيت فى الدنيا
لم أُوت	لم أُعط، أو أتسلم.
ياليتها كانت القاضية	ليت الميتة التى ماتها لم يبعث بعدها
ما أغنى عنى ماليه	ما دفع عنى ما ملكت فى دنياى من عذاب الله شيئًا.
هلك عنى سلطانيه	زال نفوذى وجاهى، وذهب غرورى وقوتى وقيل: ضلت عنى حجتى أمام ربى
فغلوه	أوثقوه واجعلوا الغل فى عنقه.
صلوه	أودعوه النار، ألقوه فيها.
ذرعها	الذرع: كيل طول الجسم بالذراع.
لا يحض	لا يحث، ولا يحرض، ولا يلح.

الكلمة	معناها
حميم	قريب مشفق، يحميه، أو نصير يعينه
غسلين	غسالة أهل النار من الصديد والقبح وغير ذلك.
الخاطئون	الكافرون، المنحرفون عن الحق.
تقوّل	اختلق وافترى علينا زوراً وكذباً.
باليمين	بالقوة الشديدة المتمكنة.
الوتين	نياط القلب، أو نخاع الظهر.
عنه حاجزين	مانعين الهلاك عنه.
لحسرة	ندامة.
فسبح باسم ربك	نزهه عما لا يليق به سبحانه وتعالى، وداوم على ذكره في كل حين.

التحليل الأدبي:

الحاقة.. سورة ينبئك اسمها عن مضمونها. وهي إحدى السور المكية التي واكبت ميلاد الدعوة وترعرعها في مكة.

الحاقة.. اسم من أسماء القيامة، هذا الحدث الجليل الرهيب الذي سيطوى سجل هذه الأكوان جميعها طي السجل للكتب، لتبدأ حياة جديدة أبدية هي حياة الآخرة. والحاقة لفظة ذات ظلال وإيحاء في لفظها ومضمونها، تشع بمعاني الصرامة والجد والإحقاق. إنها تحقّ فتقع بزلزالها

الذى يبدل هذه العوالم كلها، أو تحقّ فتنزل بحكمها على الناس، أو تحقّ فيكون فيها الحق والفصل بين العباد.

إن أجواء هذه السورة كلها أجواء جد وحزم وهول وروع، وهى تلقى فى الحس شعوراً بالقدرة الإلهية المطلقة، وبضآلة الإنسان أمام هذه القدرة الكبرى، وبأخذها له أخذاً شديداً فى الحياتين العاجلة والآجلة، إذا حاد أو تلفت عن منهج الله المتكامل.

الحاقة.. إيقاع أشبه شىء برفع ثقل هائل رفعًا طويلاً، ثم استقراره مكينًا. ويتجلى هذا الرفع فى مد الحاء بالألف، ويتضح الجد الصارم فى تشديد القاف بعدها، ثم استقرار النطق عند التاء المربوطة التى تُنطق هاء ساكنة عند الوقف.

الحاقة.. لفظ مفرد، ومبتدأ لا يقيده خبر ظاهر، بل خبره هو جملة «ما الحاقة»، هذا الاستفهام الحافل بالاستهالة والاستعظام لماهية هذا الحدث العظيم: ما الحاقة؟. ثم يزداد الأمر تهويلاً فيخرج بالمسألة من حدود العلم والإدراك إلى دائرة التجهيل: وما أدراك ما الحاقة؟ ثم لا جواب على ذلك. ويدعك واقفًا واجمًا أمام هذا اللغز الذى لا سبيل إلى علمه، لأنه أعظم من أن يحيط به علم أو إدراك.

أجل، إن آيات كثيرة، وفى مواضع شتى، قد أماطت اللثام عن جوانب من عوالم الآخرة، ابتداء من نفخة الصور التى يصعق لها كل شىء فى الكون، وإلى أن يستقر كل فريق فى دار قراره، ويقال: الحمد لله رب العالمين، لكن الحاقة فى ذاتها، أى وقع الساعة وزلزلتها وما يصاحبها، تظل لغزًا فوق التقدير والفهم والإحاطة، ولا نملك حيالها غير التقريب الذى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أمدنا به القرآن نفسه: «إن زلزلة الساعة شيء عظيم – وتأمل هذا التنكير الغامض المحير الذى تقشعر له الأبدان وتنخلع له الأفئدة – يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى» علمًا بأن هذا مجرد رصد طفيف لوقوع الساعة، وأثره المباشر فى المخلوقات.. فتدبر وتخيل أى شيء هى الأحداث نفسها.. أى فزع وهلع، وأى زلزلة وتفجير وفناء.

بعد هذا الاستهلال المحفز الموقظ للأذهان لتستقبل الآيات التالية بجدية واهتمام وتدبر واتعاظ، تنطلق السورة عبر مشاهد متتالية، كل منها يسلم فى تلقائية وانسجام إلى ما بعده.

ونستطيع أن نتبين – على وجه التقريب – مراحل أربع تمضى بنا خلالها آيات السورة كالآتى:

المرحلة الأولى: استعراض مصارع المكذبين من بعض الأمم البائدة.

المرحلة الثانية: تصوير لبعض مشاهد الحاقة نفسها حين تقوم وتعلن القيامة.

المرحلة الثالثة: تقديم نموذجين مما سيقع إثر انتهاء الحساب وتقرير النتائج للفريقين: الناجين أهل الجنة، والهالكين أهل النار. ثم وقفة خاصة مع النموذج الثانى يناسب كل المناسبة الأجواء العامة للسورة فى اسمها ومشاهدها وألفاظها وظلالها المروعة المنذرة.

أما المرحلة الرابعة أو الأخيرة: فهى التفات مركز جازم جاد لتأكيد حقيقة القرآن وحقيقة مصدره، وحقيقة تكليف هذا الرسول المختار به، ودقة أمانته فى تبليغه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والسورة فى جملتها تشعرنا بقوة وعمق أن أمر الدين والعقيدة جد خالص حازم جازم، جد لا يحتمل التشاغل أو التفريط قليلاً أو كثيراً، ولو كان المقصر – على سبيل الجدل والافتراض – محمداً الرسول المصطفى نفسه، فالأمر أكبر من الرسول ومن كل البشر، إنه الحق، حق رب العالمين.

ونبدأ رحلة التأمل التحليلى مع آيات السورة، آية آية، ومشهداً مشهداً، ومرحلة مرحلة.

ما نكاد ننتهى من مدخل السورة بتركيبه الباهر الموحى من خلال الابتداء المثير والاستفهام المحفز، ثم تكراره باستفهام أكثر تعجيزاً وتحيراً، حتى نندمج فى تلقائية وانسجام مع آيات المشهد الأول، فنقرأ مباشرة بعد «**الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة**» فنقرأ «**كذبت ثمود وعاد بالقارعة**».

إن الذى أحدث تلك النقلة التلقائية وذلك الانسجام شيئان: أما أحدهما فهو جوهر المضمون فى المنتقل منه والمنتقل إليه، وهذا الجوهر هو موضوع القيامة ذاته. فالقيامة فى المفتتح هى الحاقة، ثم هى هنا القارعة، وهى فى المشهد التالى الواقعة، وهى فى مواطن كثيرة من القرآن بأسماء أخرى، كل اسم يناسب الأجواء التى تظلله ويتواءم مع الألوان التى من حوله. فإذا ما انتهينا من استعراض هذا المشهد خرجنا بأنه إنما سيق هنا تبياناً لموقف التكذيب بالحاقة نفسها وكيف كان مصير المكذبين بها. أما الثانى: وهو أوضح وأسبق للعين، فهو لفظ القارعة نفسه الذى هو اسم شقيق من أسماء الساعة أو القيامة كما عرفنا. والجديد فى هذا الاسم أن القرع ضرب الشيء الصلب والنقر عليه بشيء مثله، أى أن القارعة تقرع بزلزلتها القلوب هولاً وفزعاً، وتقرع الأكوان تدميراً وخراباً. وقد كذبت بها

– أى بالقارعة والحاقة ربطًا للسياق – ثمود وعاد.. فكيف كانت العاقبة؟

ويشدنا المشهد، فإذا هو حى متفاعل فى حسنا، ماثل فى أذهاننا.. فهذه مصارع ثمود وعاد وفرعون وقرى لوط (المؤتفكات) تتحرك أمامنا، وهذه سفينة نوح تتقاذفها أمواج الطوفان العظيم حيالنا.

«**فأما ثمود**(*) **فأهلكوا بالطاغية**». هكذا فى كلمة واحدة «بالطاغية». وهى وصف فقط للصيحة التى جاءت بهذا الاسم فى موضع غير هذا، وصف فيه هول منقض يناسب أجواء السورة من حيث المضمون، وفيه تناغم لفظى مع القارعة، والحاقة، ثم مع: عاتية، خاوية، باقية. واكتفى السياق هنا فى وصف مهلك ثمود بلفظ الطاغية – دون إطناب – لأنها كانت أخذة خاطفة قاضية.

أما عاد فأُطيل شىء ما فى شأن تدميرها، لأن إهلاكهم استمر سبع ليال وثمانية أيام متواصلة، وفصّل أيضًا وسيلة الإهلاك، فهى ريح صرصر، أى شديدة باردة، وزاد شدتها بوصفها «عاتية»، لتناسب عتو عاد نفسها وطغيانها فى الأرض. وهى ليال وأيام حسوم، أى قاطعة متواصلة. وتنتهى العاصفة المزمجرة المدمرة المستمرة طيلة تلك الليالى السبع والأيام الثمانية كما يرسمها المشهد هنا، وإذا بمنظر البلاد عقب الإعصار: «**فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية**».

يالله. أين الأشداء الجبارون المتكبرون على الله؟ لقد أصبحوا مصروعين مجدلين متناثرين على الأرض، مثل جذوع النخيل التى تآكلت أجوافها

(*) كانت ثمود تقيم فى منطقة الحجْر فى شمال الحجاز دون الشام.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فارتمت ساقطة على الأرض هامدة.

يا له من مشهد ساكن كئيب، بعد تلك العاصفة الرهيبة! «**فهل ترى لهم من باقية؟**».

هل من باقية لثمود أو لعاد؟

لا.. فليس لهم أية باقية.

الباقى فقط هذا المشهد الحى الماثل للقلب وللذهن أمام كل متدبر يتأمل هذه الآية.

«**وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات** (قوم لوط) **بالخاطئة**(*) **فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية**».

هنا وقائع كثيرة أخرى. لكنها تساق باقتضاب وتركيز شديدين ففرعون موسى عليه السلام معروف، وقرى المؤتفكات من قوم لوط معروفون أيضًا، وما بين أقوام ثمود وعاد، وعصر فرعون المعروف، وقائع كثيرة جاءت موجزة فى قوله «**ومن قَبْله**» بتسكين الباء. أما القراءة بفتحها وكسر القاف قبلها، «**ومن قِبَله**» فيختص المعنى بحاشية فرعون وجنوده والموالين له. كل أولئك جاءوا بالخاطئة أى بضروب الفواحش والمنكرات والعصيان. وكل أولئك أُنذروا بالقارعة وبالحاقة، لكنهم تكبروا على الله وعصوا رسله. وإنما عبر بالمفرد «رسول ربهم» نيابة عن الجمع، باعتبار وحدة رسالاتهم، ووحدة مصدرها وغايتها؛ فالرسل جميعًا رسول واحد، يمثل حقيقة واحدة، صادرة عن مصدر واحد، وذلك من بدائع الإشارات القرآنية الموحية، وجميل الاستخدامات الدقيقة الموجزة. فماذا كانت

(*) كانت عاد تسكن الأحقاف فى جنوب الجزيرة العربية بين اليمن وحضرموت.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لعاقبة؟ «فأخذهم أخذة رابية»: أى غامرة طامرة عالية قاضية.

إن التعبير بالأخذ هنا عن مختلف صور الإهلاك، ثم صوغ هذه الصورة من الفعل واسم المرة والهيئة معًا، ثم وصف ذلك بمادة الربا بمعنى الزيادة والغمر والاستئصال.. هذا التعبير يمثل ملمحًا من ملامح الأسلوب القرآنى المركز ذى الدلالات الواسعة المتعددة. فإذا جئت تحلله بهرك إعجازه وأعياك تتبع بدائعه وأسراره.

ويلتفت السياق القرآنى إلى حادثة الطوفان الذى أهلك قوم نوح، باعتبارها إحدى صور الأخذ الماحق لمن كذب بالقارعة، ممن تضمنه قوله «ومن قبله» من الأمم القديمة البائدة: «إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية* لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية».

إنه خطاب على سبيل الالتفات لتلك الأقوام المهلكة، تقريعًا لهم وتأنيبًا على كفرهم وتذكيرًا بحادثة الطوفان التى منّ الله فيها بنجاة أسلافهم الذين انحدروا من أصلابهم، كما أنه خطاب للأمم التالية ومن بينها أمة محمد عليه الصلاة والسلام المختارة لهذا الوحى، لهذه الآيات، لتعى الحقيقة وتتعظ بمن سبقها من الأمم. وتأمل التعبير بفعل (طغا) حين تفجرت الأرض وتدفقت أبواب السماء وغمرت الأمواه كل شىء فى سرعة وقوة، كيف استطاع هذا الفعل التعبير الدقيق الشامل لتصوير تلك المشاهد العاتية؟ أما إسناد الفعل (حملناكم) إلى رب العزة فهو على سبيل المجاز العقلى، بناء على أنه سبحانه أوحى إلى نوح بصنع الحاملة أى السفينة ووضع المحمول فيها ومن بينهم خميرة الجنس البشرى، أى أسلافنا الذين عمروا الأرض بعد انتهاء الطوفان واستئناف مسيرة الحياة.

أما التعبير بالأذن الواعية، ففيه تعريض بالمشركين الذين لم يتعظوا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بخبر الطوفان والسفينة، واتخذوا الأمر تسلية وتفكهًا وغرتهم الأمانى حتى جاء أمر الله. أما الذين وعوا ذلك الدرس وتيقنوا معناه، فهم المعنيون بهذا التذكير النافع الهادى إلى الصراط المستقيم.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

إنها لحظة الصفر، اللحظة الفاصلة بين الحياة الدنيا وابتداء حوادث الحياة الآخرة. إذن فنحن فى المرحلة الثانية من سياق هذه الآيات:

نحن هنا أمام مشهد جديد. ليس من المشاهد الدنيوية التى مرت بنا والتى يسهل على الذهن تمثلها واستحضار هيئتها مهما كانت مهولة نادرة. إن المشهد هنا وفى المرحلة الثالثة التى هى امتداد طبيعى لهذا المشهد، هو عالم من عوالم الغيب، لا يدرك العقل من عناصره شيئًا ولا يستطيع حتى تصوره، كالنفخ فى الصور، وماهية الصور نفسه، وانشقاق السماء، والملائك وعرش الرحمن سبحانه، والثمانية، ما هم ومم يكونون؟

وجاءت الفاء فى قوله «فإذا نفخ فى الصور» لتفريع ما بعدها بناء على التهويل الذى استهلت به السورة فى قوله «الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة»، فعلم أنه تهويل لأمر العذاب الذى هُدد به المشركون من أمثال ما نال أشباههم فى الدنيا وما ينتظرهم من عذاب الآخرة. فلما أتم تصوير ما لاقوا من عذاب الدنيا، فرّع عليه ما ينتظرهم من هول قيام الساعة وما يتلوها من أهوال البعث والحساب والجزاء.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ونتأمل ملامح هذا المشهد: نفخٌ فى الصور، هذا المخلوق الغيبى الغامض.. نفخة واحدة.. واحدة فقط. وتخيل ما وسعك التخيل هذه النفخة الواحدة التى يصعق لها من فى السموات والأرضين إلا ما شاء الله. وحملٌ للجبال والأرض ودكها جميعًا دكة عنيفة، وهى دكة واحدة فقط، كذلك.. فتخيل أيضًا أية دكة هى! وتصدعٌ فى السماء، وتوزّع الملائكة فى أرجائها التى لا يحيط بها غير علم الله، ثم حملٌ لعرش الرحمن سبحانه من قبل ثمانية هكذا «ثمانية» على غموضها.

إن غموض كل تلك الملامح يضفى رهبة تخشع لها النفوس وتعنو لها القلوب. وإذا بتلك المشاهد التى صورت مصارع الأمم المذكورة مما يجرى فى عالم الشهادة محدودة وضئيلة أمام هول هذه الملامح الرهيبة الغيبية المقترنة بالواقعة، بالحاقة، بالقارعة: هل قرأت عن تكون المجرات الكونية، وما فيها من نجوم وكواكب وكيف تنشأ وتتطور من حال إلى حال، حتى تشيخ، ثم ينفرط عقد نظامها، فتتفتت وتتناثر ذرات فى أركان الكون؟

إن ذلك ضرب مما سيقع عندما ينفخ فى الصور، وتقريب مجرد تقريب لما سيحدث «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات».

وقد تنبأ علماء الفلك بنهاية تشبه ذلك، استنباطًا من ملاحظاتهم العلمية، وطبقًا لما عرفوه عن طبيعة هذا الكون ومصيره.

إن التصوير القرآنى مجمل موح، ونحن لا نملك غير الوقوف عند إيحاء هذا التصوير.. ها هى ذى الأرض بما عليها تُحمَل بكتلتها الضخمة بالقياس إلينا، والضئيلة كالهباءة بالقياس إلى ملكوت الله، فتدك دكة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

واحدة. وها هى ذى السماء متصدعة قد هوت مجراتها وتناثرت أنجمها. ثم يغمر الجلال هذا المشهد ويغشيه وتسكن الضجة التى هزت الإحساس من هول النفخة والدكة والتشقق والاندثار. يهدأ هذا كله، ويظهر فى المشهد عرش الواحد القهار: «**والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية**».

يحمله ثمانية: ثمانية أملاك، أو ثمانية صفوف منهم، أو ثمانى طبقات من طبقاتهم، أو ثمانية مما يعلم الله. لا يعلم بشر قط ما هم؟ كما لا يعلم أحد أبداً ما العرش؟، ولا كيف يُحمل؟. ولسنا مطالبين بعلم ذلك، إذ لو كان ضروريًا لأبانه الله لنا. ما يهمنا فى مثل هذا الموقف هو الظل الذى يعكسه هذا التصوير، والشعور الذى ينيره فى الوجدان والضمائر.

ويومئذ.. ترى ماذا يقع يومئذ؟

«**يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية**». ما أقساه من موقف! هنا يتعرى كل شىء، ويتعرى أمامه الإنسان من كل شىء. إنه عريان الجسد والقلب والشعور والضمير والنية، عريان التاريخ أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله.. ألا إنه لأمر، أمرّ من كل أمر!!

وقد تكرر لفظ «يومئذ» أربع مرات خلال مشاهد وقوع الساعة، وفى ذلك ما فيه من التركيز على وقوع هذا اليوم، والتأكيد على تهويله وتضخيم أمره ورهبة ما سيكون فيه.

ويبرز أمامنا مشهدان عظيمان، يتفرعان من خلال «الفاء» عن قوله تعالى: «تعرضون». مشهدان فيهما تفصيل لذلك العرض الموجز هنا. مشهدان يمثلان المرحلة الثالثة التى هى امتداد طبيعى وتفريع عن المرحلة الثانية كما قلنا.

المشهد الأول: «فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول: هاؤم اقرأوا كتابيه، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه..» وإيتاء الكتاب هو إيقاف كل إنسان على صحيفة أعماله فى الدار الدنيا. وإنما جُعل ذلك باليمين تعبيراً عن أهل اليمن والسعادة والنجاة. وسواء أكان الإيتاء حقيقة أم كان مجازاً، فالغرض هو إطلاع المرء على نتيجة مسعاه الدنيوى. ولما كانت النتيجة ميمونة تحمل البشرى بالفوز الأكبر، جاء هذا الفرح الغامر، وهذا السرور العارم الذى لم يملك صاحبه كتمانه، واندفع راقصاً يعلنه على رؤوس الأشهاد. إنه اندفاع فياض يعكس مقدار البهجة التى لا توصف حين تنتشل صاحبها من أوهامه وتوجساته ومخاوفه وسط ذلك اليوم العصيب الذى تبلغ فيه القلوب الحناجر.

إنه نموذج المؤمن الذى لا يصدق أنه ناج، بل يتوقع أن يناقش الحساب، «ومن نوقش الحساب عُذب» كما جاء فى الأثر. ذلك هو نموذج الناجين، بيض الوجوه، أصحاب اليمين؛ قد كانوا يخافون ربهم فى الدنيا ويخشونه حق الخشية ظاهراً وباطناً، فتجشموا المكاره «حُفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» وصبروا على مشاق الطاعة، وضرائب الالتزام، وأشواك الطريق، وخشية سوء العاقبة، فعوضهم الله فى الآخرة خير تعويض، ولم يجمع عليهم خوفى الدنيا والآخرة، بل أبدلهم بذلك الأمن والسعادة والنعيم والرضى.

أما الجزاء، فهو وإن جاء حسيا، فإنما ليناسب طبيعة الإنسان فى تعلقه بما عهد من ملاذ النعيم الدنيوى وصوره، وليلائم كل الأفهام والتطلعات عند العامة قبل الخاصة، إذ هذا الدين خطاب للناس كافة.. فقد صُور تصويراً يعكس أسمى وأجمل وأحلى ما يطمح إليه بشر من النعيم والهناءة والرضوان والجنان، حيث لا نصب ولا حزن ولا مرض ولا فناء:

« **فهو فى عيشة راضية * فى جنة عالية * قطوفها دانية** » وهو ليس تكريماً مجرد تكريم، بل تكريم مقرون بالتهنئة:

« **كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية** ».

ولقد جاءت هذه التهنئة فى صورة التفات؛ إذ المخاطبون هنا هم أهل الجنة بعد أن استقروا فيها، على حين كان الحديث فى السياق السابق بضمير الغائب المفرد. وقد أكسب هذا الخطاب الجماعى المعنى ثراءً كبيراً إذ فيه إشعار بدفء الاجتماع والتقاء المؤمنين « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » فيتبادلون الابتهاج ويتذوقون الأنس.. وهى ظلال ما كانت لتوجد لو جاءت تلك التهنئة بصيغة المفرد الغائب، لما فى الإفراد والغيبة من إيحاءات الوحدة والوحشة والانقطاع عن الآخرين، وهو ما لا يتناسب ومقام التهنئة بفرحة الأفراح، وغاية الغايات، ولقاء الأحبة: رسول الله ﷺ وصحابته الأبرار والإخوة فى الله فى دار الدنيا.

أما المشهد الثانى، فهو مشهد الخاسرين الهالكين:

« **وأما من أوتى كتابه بشماله، فيقول: يا ليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عنى ماليه * هلك عنى سلطانيه** ».

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنها وقفة مريعة، وحسرة مديدة، وتأوه متقطع، بل هى نواح ورثاء! ويطيل السياق عرض هذا المشهد فى نبرات موجعة محزنة، حتى ليخيل إلى السامع أنها لا تنتهى إلى غاية، وأن هذا التفجع والتحسر سيمضيان بلا نهاية!

إن تلك الرنة الحزنية المديدة فى طرف الفاصلة الساكنة، وفى ياء العلة قبلها بعد المد بالألف.. هى جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى.. إيحاء عميقًا بليغًا..

ولا ينتشل هذا النادب المكلوم إلا القرار العلوى الجازم بجلاله وصرامته، يطرق سمعه فترتعد له فرائصه، وتفور منه دماؤه «خذوه» أمر عنيف.. ولكن إلى أين؟

«فغلوه، ثم الجحيم صلوه، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه»..

يا لله.. ما أشده من مشهد مفزع وتصوير مريع. إنها لطمات وصفعات متلاحقة من الأخذ والإصلاء، وإحكام القبضة فى دركات الجحيم. إن ذراعًا واحدة من سلاسل جهنم تكفى لإذابة جبل شاهق، لكنها «سبعون» إيحاءً بهول العذاب وتطويقه وطول مقاساته وتجدده.

وتأمل سر التقديم فى «ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه». هل نقول إن الفاصلة هى الداعية له والمضطرة إليه؟ الحق أن مجىء الفاصلة على هذا النمط البديع إنما تم تلقائيًا بسبب التقديم الرامى إلى تحديد المكان المراد وتعجيل المساءة بذكره وما يوحى به

شبكة الألوكة - قسم الكتب

من هول ورعب عظيمين. وكذلك الأمر فى تقديم الجار والمجرور فى الآية الأخرى. أما جملة «ذرعها سبعون ذراعًا» فهى صفة «سلسلة»، وقعت معترضة بين المجرور ومتعلقة لغرض التهويل على الهالكين الذين حق عليهم العذاب.

ومعلوم أن «سبعين» ليست على حقيقتها العددية، وإنما تدل على الكثرة المطلقة على سبيل التعبير الكفائى، كقوله تعالى «إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم».

لقد رأينا الفائز تبلغ به فرحة النجاة مبلغًا يفوق كل حد، حتى لتدفعه دفعًا لإعلانها على رؤوس الأشهاد. أما هذا الهالك فإن حسرته ومصيبته تعظم عليه وتسد عليه أقطار فكره وحسه فتتعثر على شفتيه تمتمات، وتختلج فى صدره الحرج حشرجات.

النموذج الأول يأتيه قرار مكافأته، فإذا هو آذان مصغية وتطلعات متلهفة لسماع خبر نجاته المبهج الرائع. أما هذا النموذج الخاسر فيأتيه النداء الصاعق المريع، يفضحه بين العباد، ويذيع أسباب هلاكه:

«**إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين**» فهو لم يعترف بالله، ولم يستجب له، ولم يلتزم بأوامره ونواهيه. وهو أنانى لا يعرف العطف على الفقراء والمساكين. وفى هذا إشارة إلى ارتباط الإيمان بالعمل الصالح من معروف وإحسان وتكافل اجتماعى.

إنه نموذج مقطوع ممنوع. مقطوع عن كل أنيس وحبيب «**فليس له اليوم ها هنا حميم**»، بل حميمه السلاسل والزبانية. ممنوع من كل نعيم «**ولا**

www.alukah.net
شبكة الألوكة

طعام إلا من غسلين»، والغسلين هو غسالة أهل جهنم من قيح وصديد «**لا يأكله إلا الخاطئون**» المجرمون فى حق الله ورسوله، وفى حق أنفسهم، وفى حق الآخرين.

وينتهى بنا التطواف بعد هذه المراحل الثلاث بما فيها من مشاهد عنيفة مثيرة لصور من أخذ الله للطغاة فى الدنيا، ولبعض مظاهر الدمار الكونى المقترن بقيام الساعة، ولنموذجى السعيد والشقى فى الآخرة.

فى ظلال ذلك الاستعراض المحفز للإحساس الباهر للعقول، المتحرك خلال إطار «الحاقة» بألوانه وإيحاءاته التى تشحن النفس رهبة وخشوعًا وتضاؤلاً أمام جلال الله وعظمته وجبروته.. فى ظلال ذلك كله تساق خواتيم هذه السورة. إنها المرحلة النهائية التى تتوج تلك المراحل السابقة تتويجًا كله جد وحزم وتقرير قاطع لبعض الحقائق التى تتصل بحقيقة جوهر الرسالة وهو القرآن وحقيقة الرسول المبلغ الأمين.

«فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون»:

الفاء هنا لتفريع إثبات أن ما ساقه القرآن فى هذه السورة من حقائق وإخبار عن أمور حدثت وأخرى محققة الحدوث، إنما هى صدق محض ووحى حق، مهما قال عنها المرجفون من المشركين والمنافقين. فإذا اعتبرنا «لا» المقترنة بالقسم نافية، كان المعنى أن الأمر لا يحتاج إلى قسم، لأنه فى غاية الوضوح والثبوت، فإن القرآن صادر عن الحق، ليس بشعر ولا كهانة ولا كذب.

أما إذا اعتبرنا «لا أقسم» صيغة خاصة ذات مدلول تأكيدى صار المعنى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أن الله سبحانه يقسم بأحد جوامع القسم، أو لعلها أشمل صيغة للقسم فى القرآن، وهى «بما تبصرون وما لا تبصرون».

لماذا..؟ لأنه قسم ذو فخامة وإحاطة. قسم بكل ما فى عوالم الغيب وعوالم الشهادة، بكل ما فى إدراك الحس وإدراك العقول.. من عوالم المادة إلى عوالم النفس والروح.. من الذرة «والأميبا» حتى عوالم المجرات فى الأكوان اللانهائية.

إنه قسم معجز، يتحدى هذا الإنسان المغرور بعقله وفلسفاته ونظرياته ومكتشفاته فى ميادين العلم، هذا العلم الذى يزيده أبداً إيغالاً فى الحيرة، ووقوفاً على مجهول جديد، اعترافاً بالجهل الذى لا تحده حدود(*).

لقد تقول المشركون على القرآن وعلى رسول الله ﷺ ورموه بالشعر والكهانة لما وجدوا القرآن يفوق أساليب البشر. ولما كان الشاعر والكاهن فى وهمهم يتلقيان إبداعهما عن الجن، نسبوا القرآن هذه النسبة. وهى شبهة أو فرية تسقط عند أقل تدبر لطبيعة القرآن ومقارنته بطبيعة الشعر أو الكهانة.

إن هذا القرآن يقرر منهجاً متكاملاً للحياة يقوم على حق ثابت ونظرة موحدة، وتصور شامل للوجود وللحياة وللإنسان.. للطبيعة ولما وراء الطبيعة.. فأين منه دنيا الشعر دنيا العواطف والأخيلة والأمزجة والأفكار

(*) لمزيد من الفائدة ينصح بقراءة كتب مثل: «العلم يدعو إلى الإيمان» لكريسى موريسون ترجمة محمود صالح الفلكى، و«عقائد المفكرين فى القرن العشرين» للعقاد و«دائرة معارف الجهل!!» لمجموعة من كبار العلماء المعاصرين (باللغة الإنجليزية).

البشرية المتقلبة بكل نقائضها وضعفها ونسبيتها؟ بل أين منه عالم الكهان بتخريفاتهم ورجمهم بالغيب ورمزيتهم المعتمة ونظراتهم الجزئية المتخبطة التى لا تثبت أمام منطق العقل والعلم؟

ولقد كان كبراء قريش – على صلفهم وتعنتهم – يراجعون أنفسهم أحياناً ويذعنون معترفين بتلك الحقائق والمسلمات التى جاء بها القرآن، ثم ما يلبثون أن ينكصوا على أعقابهم ويطمس الضلال المستحكم على بصرهم وبصائرهم. وقد وردت أمثلة كثيرة على ذلك فى كتب السيرة النبوية العطرة، منها: موقف الوليد بن المغيرة، وموقف النضر بن الحارث، وموقف عتبة بن ربيعة.

وتقرير أن القرآن قول رسول كريم، لا يعنى أنه من إنشائه وتأليفه، بل المراد أنه قول فريد لا يقوله شاعر ولا كاهن، وإنما يقول هذا المختار من قبل السماء، المكلف بتأديته كما أوحى إليه دون تغيير ولا تبديل ولا زيادة أو نقصان.

«**تنزل من رب العالمين**»: من خالق الخلق أجمعين من موجد الرسل والأنبياء والشعراء والكهنة كلهم، من الرب المشرع الحكيم الخبير.

«**وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون**».

لماذا عقّب على الآية الأولى بقول «ما تؤمنون»، على حين ختم الثانية بقوله «ماتذكرون»؟

الحق أن هنا معنى لطيفًا وهو أنه من نسب النبى عليه الصلاة والسلام إلى أنه شاعر، فهو جاحد كافر؛ لأن القرآن ليس بشعر، لا فى أوزانه ولا فى تشاكل آياته، وهو أمر يدركه كل من لديه أدنى إلمام بفن الشعر، بله أساطين البلاغة من العرب يومئذ. وأما من قال إنه كاهن، فلأن كلام الكهنة نثر غير نظم، فمن قال إن القرآن مثل كلامهم، فإنه كان ذاهلاً عن تذكر ما بنى عليه كلامهم من السجع المفتعل الأجوف، والتهويمات الغامضة، والإشارات الملغزة. ولو تذكر وتأمل لعقل أن القرآن – مبنى ومعنى – بعيد غاية البعد عن ذلك. وإذن لا يقول مؤمن عن الرسول: إنه شاعر ولا يقول متذكر متدبر: إنه كاهن؛ إنما يملى هذا القول النكير كفر متبجح أو غفلة متسرعة.

لقد قررت الآيات السالفة أن القرآن كلام موحى به لهذا الرسول الكريم، ثم نفت عنه أن يكون من جنس ما يخطر بخيال الشعراء، أو ما يهرف به معشر الكهان، وتبقى لدينا قضية الافتراء.

أيصدق عاقل، بل أيتصور إنسان أن يفترى محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام هذا القرآن وينسبه إلى مصدر غيبى هو الوحى؟!

أما كان من الأنسب والأقرب إلى طبيعة الإنسان وغريزته فى حبه بل حرصه على نسبة كل فضل إليه، أن يدعى الرسول هذا الكلام الذى بهر أساطين البيان من قريش إلى نفسه شخصيًا بدل نسبته إلى السماء؟ ثم كيف يرضى الرسول لنفسه أن ينشئ قرآنًا يهاجم به نفسه بالعتاب المر من

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مثل قوله تعالى «عبس وتولى.» وقوله «وإذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا» وقوله فى هذه السورة:

«ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنكم حاجزين».

لقد عاش الرسول الكريم بين ظهرانى قومه أربعين سنة قبل الرسالة لم يُعرف عنه قط غير الأمانة والصدق حتى اشتهر فى مجتمعه كله بلقب «الصادق الأمين»، فكيف يغدو اليوم مفتريًا يدعى النبوة والرسالة؟!

ولقد عاش ذلك العمر دون أن يُعرف أيضًا بموهبة فنية من شعر أو خطابة أو كهانة، ولم يعرف عنه كذلك اتصال بأحد من قصاص الأخبار والحكايات.. فكيف ينسب المشركون ما يسمعونه منه إلى الشعر أو الكهانة أو الأساطير؟

إنه تناقض عجيب، وادعاء فاضح، وتعنت كافر أرعن وعناد جاهلى متأصل. ومع ذلك فالقرآن يعلنها صريحة تخرس ألسنة المتقولين وتقطع الأراجيف والأوهام باليقين، وتدفع الباطل فإذا هو زاهق. إنه يقرر: «ولو تقول (أى هذا النبى المرسل) علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين* ثم لقطعنا منه الوتين». إن مفاد هذا الافتراض هو عطف على جملة «فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون»، واستدلال ثان على أن القرآن منزل من عند الله تعالى على طريقة المذهب الكلامى، بعد الاستدلال الأول المستند إلى القسم والمؤكدات على طريقة الاستدلال الخطابى.

إن مفاد هذه الآيات من الناحية التقريرية أن محمداً – عليه الصلاة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والسلام – صادق فيما أبلغ الناس.. ولو أنه اختلق أقاويل أخرى لم يوح بها إليه، لأخذه الله فأهلكه على الوصف المذكور هنا، ولما كان هذا لم يقع، فهو لا شك رسول صادق أمين.

فإذا تأملنا تصوير المشهد الذى تضمن هذا التقرير، وجدنا فيه رهبة وهولاً، كما أن فيه حركة وفيه حياة، ووراء كل ذلك إيحاءات كثيرة. فالأخذ باليمين وقطع الوتين، حركتان عنيفتان مروعتان، وفيهما إيحاء بقدرة الله العظيمة وعجز المخلوق البشرى وضآلته أمامها. وفيهما أيضاً إيماء إلى جدية الأمر التى لا تحتمل تسامحاً ولا مجاملة لأحد كائناً من كان، ولو كان هو محمداً أفضل الخلق وأحبهم إلى الله.

وتتوالى سائر التقريرات فى حق الذكر الحكيم: «**وإنه لتذكرة للمتقين* وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين**».

قوله «وإنه لتذكرة للمتقين» عطف على قوله «إنه لقول رسول كريم»، والإخبار بأنه «تذكرة» إخبار بالمصدر للمبالغة فى الوصف. فالقرآن فى ذاته تذكرة، وقد وردت تسميته بالذكر فى آيات كثيرة. وتتضح هذه الحقيقة لمن يتخذ القرآن مرجعاً ومفتياً ومفزعاً كلما حزب الأمر وغمّت الرؤية وتضاربت الأهواء. فيقوم معنى التذكرة بما تتضمنه من تواص بالحق وبالصبر ومن استشفاء واستنارة به فى دياجير الحياة.

إنه تذكرة للمتقين الذين وفقهم الله فعرفوا قيمة هذا النور وهذا الشفاء وهذه الرحمة المهداة.. فكلما تلوا منه شيئاً ذكرهم بما علموا فلا تعتريهم غفلة أو نسيان.

إنه تذكرة للمتقين فى الماضى والحاضر والآتى، فإن الإخبار عنه بلفظ المصدر يتحمل الأزمنة كلها، إذ المصدر لا تحديد فيه للوقت بخلاف الفعل وما أشبهه.

«**وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين**»: إن هاتين الجملتين مرتبطتان، أولاهما تمهيد للثانية وتوطئة لها، لأن الحسرة إنما هى ثمرة الكفر، وما الكفر إلا نتيجة التكذيب: «بل الذين كفروا فى تكذيب». ومعنى كونه حسرة أنه سبب باعث للندم الشديد حيث لات حين مندم، وللتحسر الممض حيث لا يجدى التحسر. إنه حسرة عليهم فى الدنيا لأنه يفضح ترهاتهم ومؤامراتهم ويقوض أعمدة عقائدهم الباطلة، وهو حسرة عليهم فى الآخرة لأنهم سيساقون إلى ألوان العذاب بسبب تكذيبهم، وحينئذ سيقفون على اليقين الساطع بأن ما كان يدعوهم إليه هذا القرآن هو سبب النجاح والنجاة لو أنهم اتبعوه واستجابوا لأوامره ونواهيه.

«**وإنه لحق اليقين**»: يحتمل أن يكون الضمير فى «وإنه» عائداً على القرآن، إذ القرآن لا ريب أنه حق اليقين. ويحتمل أن يكون عائداً على كون القرآن حسرة على الكافرين، أى أن ذلك حق لا محالة جالب لحسرتهم فى الدنيا ثم فى الآخرة.

«**فسبح باسم ربك العظيم**» هو تفريع على جميع ما تقدم من وصف القرآن وتنزيهه عن المطاعن وتنزيه الرسول الكريم عما افتراه عليه المشركون، وما أيده الله به من ضرب المثل بالأمم المكذبة، وما عرضه عليه من مشاهد الساعة ومواقف الحساب والجزاء.

« **فسبح** » : أمر بالتسبيح المتضمن للثناء والتعظيم لله جل جلاله . ويعجز القلم هنا عن استيفاء محاسن هذا الاختتام الرائع : فهو تسبيح تسليم وخشوع وتعظيم بعد هذا الاستعراض الجاد المروع للحاقة ومشاهد قيامها ومواقف العباد فيها، ولمصارع تلك الأمم المغضوب عليها . وهو تسبيح تصديق واستغفار واعتراف بحقيقة القرآن وصدقه، وأمانة مبلغه عليه الصلاة والسلام وعاقبة الإيمان أو التكذيب به .

« باسم ربك العظيم » : ما أجمل كاف الخطاب هذه فى قوله « ربك »، وكم فيها من إيناس للرسول الحبيب بعد ذلك الاستعراض المروع، والجد البالغ أقصاه لا سيما فى قوله « لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين . . » .

وما أدق هذا الوصف « ربك العظيم » . إنه أنسب وصف لختام هذه السورة الجادة الصارمة بمشاهدها التى تهز الوجدان وتملأ النفس رهبة وخشوعًا . وأى وصف أجدر بالإله الذى يبعث الحاقة بما وُصفت به فى هذه السورة، والذى دمر تلك الأقوام المتجبرة الكافرة، والذى أنزل هذا الذكر الحكيم، وأرسل هذا النبى المصطفى ليكون رحمة للعالمين كافة . . . أى وصف أبلغ وأجدر به فى هذا المقام غير وصف « العظيم » ؟

وننتقل الآن لتأمل هذه السورة الكريمة من حيث أساليبها وإيقاعاتها . فإن المعانى لا تبلغ دقتها وإحاطتها وعمقها، والصورة الأدبية لا تكتمل أبعادها الفنية والنفسية، إلا من خلال تلك الأساليب وتلك الإيقاعات .

إن سورة الحاقة باقة من الأساليب المتدرجة المتلاحقة، ومن الفواصل

المسجوعة المتشابهة. إنها تجمع من حيث الأساليب بين الاستفهام والتقرير، والتأكيد والقسم. وكل أسلوب من هذه الأساليب يتنوع ويجرى طبقًا لما يقتضيه السياق. ففى مقام الاستفتاح المثير للأذهان، المعبر عن ظلال لفظ الحاقة وإيحائه يأتى الاستفهام على هذه الصورة:

«الحاقة، ما الحاقة؟ * وما أدراك ما الحاقة؟» لكنه فى مقام آخر يأتى محدداً هكذا: «فهل ترى لهم من باقية؟» لما كان الاستفهام على غير حقيقته.

والجمل التقريرية هى أيضًا ألوان؛ كل لون منها يعكس المضمون المحتوى عليه. فعند استعراض مصارع الأمم البائدة، ابتدأ المشهد بالفعل الماضى المجرد عن كل توكيد «كذبت ثمود وعاد بالقارعة» ثم «وجاء فرعون..» ثم «فعصوا رسول ربهم...» حتى إذا اقتضى الأمر التذكير بالمنّ الأكبر على الجنس البشرى، وكيف أنقذ الله أسلاف هذه الشعوب الباقية، تبدل أسلوب الجملة فجاء على نمط مغاير لما تقدمه «إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية»، معزواً مباشرة لله تعالى ومصوغًا ضميراً للمتكلم.

ومن هذا القبيل قوله «لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين». فقد أسند الفعلان مباشرة لله سبحانه، تبيانًا لجدية الأمر، وتأكيداً لأهميته، وإشعاراً بقوة مصدر الوحى وقوة حفظه ورعايته.

أما عندما يكون الغرض متعلقًا ببيان المفعول، فيُبنى الفعل للمجهول، فإذا هو أكثر بلاغة، وأوقع معنى، وأهول تصويراً. وعلى هذا الاعتبار سيقت الآيات التالية: «فإذا نُفخ فى الصور». «وحُملت الأرض والجبال

فدُكتا..»، «يومئذ تُعرضون...»، «وأما من أوتى كتابه.». ذلك أن التركيز منصب على المفعول لا على الفاعل. وفاعل تلك إما الملائكة أو ما أودعه الله من نواميس، والكل بإذن الله وقدرته.

إن كل ما سيحدث من وقائع القيامة هو بإذنه تعالى ومن صنعه. غير أن من تلك الوقائع ما يناسبه البناء للمجهول كالآيات المذكورة السالفة، ومنها ما لا يناسبه إلا البناء للمعلوم، على الرغم من أن هذا البناء هو بناء مجازى فى تكوينه، وإنما جاء رائعًا بارعًا لأنه قام على هذين الركنين: البناء للمجهول، وقيام المجاز فيه. من أمثلة ذلك قوله «فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء..»؛ فإن الواقعة لا تقوم بنفسها، ولا السماء تنشق من ذاتها، ولكن يتم ذلك بإرادة الله ومشيئته.

ومن ألوان التنويع، ذلك الالتفات البديع الذى يلون مسارات الأسلوب، ويغير من سياقه؛ فيبدل رتابته بتجدد طارئ منشط، يحفز الذهن، ويستثير الإحساس. تأمل قوله تعالى: «فهو فى عيشة راضية... * كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم..»، حيث زاوج بين الغيبة والخطاب من جهة، وبين الإفراد والجمع من جهة أخرى.

وكذلك فى قوله «وأما من أُوتى كتابه بشماله * فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه...» ثم «خذوه فغلوه... إنه كان لا يؤمن بالله العظيم». إذ انتقل السياق من الغيبة إلى الأمر ثم إلى الغيبة مرة ثانية. وروعة هذا الالتفات أنه استحضار لذلك الموقف الرهيب، وذلك الأمر المفجع حين ينزل القرار الإلهى نزول الصاعقة على صاحبه، فإذا به يؤخذ أخذًا، فيغل غلاً، فيُلقى فى جهنم، ليوثق بتلك السلسلة التى يقشعر البدن من مجرد

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وصفها.

أما إيقاعات هذه السورة فتتجلى فى قصر الآيات، وتشابه الفواصل ذات الإيحاء فى كل نقلة من النقلات الكثيرة من البداية إلى النهاية.

ففى البداية نجد هذا التوازن بين الآيتين الأولى والثانية: «الحاقة ما الحاقة* وما أدراك ما الحاقة»، ثم تتوالى الفواصل متشابهة: الطاغية – عاتية – خاوية – باقية – خاطئة – رابية – الجارية – واعية – واحدة – الواقعة – واهية – ثمانية – خافية – كتابيه – حسابيه – راضية – عالية – دانية – الخالية – القاضية – ماليه – سلطانيه. كلها على وزن واحد وقافية واحدة: هاء أو تاء يوقف عليها بالسكون فتنطق هاء كذلك، مسبوقة بياء.

ولقد سبقت هذه الفواصل المتشابهة لترصيع البناء الصوتى الذى يقوم بإحداث التأثير النفسى فى حس القارئ والسامع عبر الانتقالات السردية واللمسات التصويرية لتلك المشاهد التى صورت مصارع الظالمين المكذبين، ورسمت بعض وقائع يوم الدين، وما يجرى فيه من أحداث ومواقف.

فإذا تأملنا جزئيتين داخل ذلك الاستعراض المثير، وهما موضعا الالتفات المشار إليهما منذ قليل:

الأول: «كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم فى الأيام الخالية». والثانى «خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه..»؛ وجدنا أن الإيقاع فى الموضع الأول يساوق سائر الفواصل المتقدمة عنه، على حين أنه فى الموضع الثانى يأخذ لونًا مخالفًا للحركة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

السابقة عليه والتالية له. ترى ما السر فى ذلك؟

إننا إذا تابعنا سياق الفواصل فى الموضع الأول، وجدناها كلها على وتيرة واحدة، وفى ظل جو نفسى واحد، جو هادئ حبيب: «فهو فى عيشة راضية * فى جنة عالية * قطوفها دانية»، ثم يتوج هذا السياق الوادع الأثير لدى النفس بذلك الالتفات الجميل ذى الصيغة الجماعية المشعرة بالأنس والاجتماع البهيج: «كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم فى الأيام الخالية»، فأتت الفاصلة «الخالية» تتميمًا للنغمة نفسها وتوحيدًا للإيقاع النفسى لموقف السعادة وفرحة الاستقرار فى رحمة الله ونعيمه ورضوانه.

أما الالتفات الثانى: فهو نقلة فجاءة ومباغتة وانقضاض. إنه تدخل مفاجئ لذلك الممزق بين حسراته وغصصه، وقطع لحبل تأوهاته من خلال تلك الفاصلة الناحبة: «يا ليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عنى ماليه * هلك عنى سلطانيه». فإذا بالأمر العلوى يباغته وينقض عليه كالصاعقة: «خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه..».

وهى مباغتة ذات نغم يجسد جدية الأمر وحدته، ويعكس هوله وروعته. لذلك جاء مخالفًا تمامًا لما تقدّمه من فواصل رتيبة كسيرة باكية.

وهو التفات – على عكس الالتفات السابق فى موقف الناجى – أتى على صيغة الإفراد إمعانًا فى إضفاء شعور الوحدة والوحشة والتنكيل الانفرادى الرهيب.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فإذا نشرت إدانته بين الخلائق فى عرصات القيامة، وأُميط اللثام عن سبب هلاكه، جاء النداء: «إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين * فليس له اليوم هاهنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون». فى إيقاع جديد يحمل طابع التعقيب، ويناسب مقام المتطلع له قارئًا، كان أو سامعًا.

هنا أيضًا الفواصل على صورة من التناسق المؤثر والتقابل الرائع: فإن «العظيم» تقابلها «حميم»، و«المسكين» تقابلها «غسلين»، ثم يتبع هذه الفواصل الأربع قفل هو «الخاطئون»، ليختتم هذا المشهد المريع فى ساحة القضاء الإلهى اختتامًا ذا إيقاع مغاير لما تقدّمه، إيقاع يوحى بالغلق والانتهاء.

ولكن.. ما إن نواصل التلاوة وندخل بعدًا جديدًا من أبعاد السورة، حتى يأخذنا إحساس آخر يضيف معنى آخر أو سرًا آخر لهذا القفل «الخاطئون».

هذا الجديد أو هذا المعنى الآخر هو سر التوطئة الإيقاعية، ذلك أن لفظة «الخاطئون» تمهيد عجيب لما بعدها فى فاصلة قوله تعالى: «فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون».

فسبحان الله.. ما أجمله من تمهيد!

ونمضى مع المرحلة الأخيرة لهذه السورة: فإذا فواصلها تجمع بين الوحدة والتنوع. الوحدة المتمثلة فى نغم متشابه يحدثه مقطع مكون من حرف المد (الياء أو الواو) يتلوه حرف الفاصلة الذى يتردد بين النون والميم:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تبصرون – تؤمنون – تذكرون – العالمين – اليمين – الوتين – حاجزين – المتقين – مكذبين – الكافرين – اليقين – كريم – العظيم.

أما التنوع فيتضح فى توزيع هذه الفواصل المتقاربة: النونية والميمية توزيعًا يتخذ مسارات صوتية تشكل جمال البناء العام للآيات. وهو جمال يجده المرتل المجيد والسامع المصغى، فلا يحس معه بتكلف مصطنع أو ضعف أو تفاوت، بل يقف على ضرب من التوازن والتقابل فى قوله «فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون» وفى قوله «إنه لقول رسول كريم» و«فسبح باسم ربك العظيم»، ثم انسياب وتجانس فيما بين ذلك، من خلال تنغيم شجى مؤثر، يجسد المعانى، ويرسلها حية متألقة، تغمر الحس، وتأسر اللب، وتبعث على ترديد ذلك التتويج البديع للسورة كلها: سبحان الله العظيم.

من بلاغة القرآن الكريم

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شرح الألفاظ:

الكلمة	معناها
البروج	منازل مقدرة لمطالع الشمس على مدار السنة كلها. وهى اثنا عشر برجًا. وتلك المنازل تعين بنجوم محددة ومجتمعة على هيئة أشكال تقريبية تصورها الإنسان، ويُطلَق على كل منها اسم خاص اصطلح عليه قديمًا، على وجه التشبيه والتقريب، ومنها مثلاً: الحمل والثور والميزان... إلخ.
اليوم الموعود	الذى وعدت به البشرية، وهو يوم القيامة.
شاهد ومشهود	المراد جنس من يرى أحوال المحشر يوم القيامة، وجنس ما يُرى من الأحوال فى المحشر. فالظاهر أن الشاهد هم الملائكة والرسل والأنبياء وصالحو الأمم، أما الشهود فهى أحوال النعيم والعذاب حينئذ. ويجوز أن يكون الشاهد جوارح الإنسان والملائكة المكلفة به، والمشهود هو الإنسان نفسه.
قُتل	لعن أشد اللعن
أصحاب الأخدود	الأخدود: هو شق عظيم مستطيل فى الأرض. وأصحاب الأخدود قوم من قدماء اليمن كافرون،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الكلمة	معناها
	نقموا على جماعات من الذين اعتنقوا دين المسيح، فنكلوا بهم، وحفروا لهم أخدوداً وأضرموا فيه النار، وألقوا فيه هؤلاء المؤمنين أحياءً.
العزيز	القادر الذى لا يُغلب، ولا يرضى الاعتداء على حرماته وأهل طاعته.
الحميد	الذى يستحق الحمد والثناء، وهو المحمود بذاته، وعلى كل حال.
فتنوا	عذبوا المؤمنين واضطهدوهم بسبب إيمانهم.
بطش ربك	أخذه الظالمين بقوة وعنف.
الودود	بالغ المحبة للمطيعين له.
ذو العرش	ذو الملك والسلطان
المجيد	الرفيع القدر والشأن المتناهى فى الجود والكرم
محيط	عليم بدقائق أسرارهم، قدير عليهم، بيده مصائرهم جميعاً.
قرآن مجيد	متناه فى الشرف، عظيم القدر والنفع.
فى لوح محفوظ	اللوح: مخلوق قدسى غيبى، رُسم فيه القرآن بدلالة لا يعملها البشر، وقد حفظ الله به كتابه من التبديل والتغيير.

التحليل الأدبى:

سورة البروج مكية. وهى إحدى السور التى تعرضت لجانب من جوانب الدعوة عند اشتداد الصراع بين الإيمان الوليد آنئذ، والكفر المكتهل المتأصل فى قريش وما حولها من قرى الأرض. كان اضطهاد المؤمنين الأوائل الذين استجابوا لله وللرسول عليه الصلاة والسلام اضطهاداً مريعًا. فقد شاهدت بطاح مكة ما جرى من تنكيل وتعذيب لبلال بن رباح مولى أمية بن خلف، ولعمار بن ياسر وأبيه وأمه موالى بنى مخزوم، ولغيرهم من السابقين فى الإسلام. كان العذاب يُصب ألوانًا، حتى لقد مات بعض أولئك المعذبين تحت الضرب والتجويع والعطش والكى بالنار.

فى هذا الجو المحموم بمكة نزلت سورة البروج، تواسى المؤمنين وتخفف من وقع الأذى عليهم، وتثبت قلوبهم على الإيمان، وتحضهم على الصبر والصمود، وتتوعد الكفار الذين كانوا يضطهدونهم بأسوأ العذاب فى الآخرة.

تبتدئ السورة بالقسم، إيذانًا بخطورة المقسم عليه، وإثارة للأذهان والقلوب إليه: «**والسماء ذات البروج**». وإنما تكرر القسم بالسماء فى مواضع كثيرة من كتاب الله، لكونها مرمى الأبصار، ومجتلى المتأملين فى هدأة الليل وصفائه؛ ثم لارتباطها بحساب الأيام والفصول وتحديد الاتجاهات لمسافرى البحر والبر؛ وكذلك لمكانتها عند المنجمين والكهان والأدباء. ولقد خُصصت السماء هنا بأنها ذات البروج، زيادة فى التنبيه إلى عظيم صنع الخالق وقدرته على تنظيم المطالع وضبط حركات الأفلاك لمختلف مصالح العباد.

« والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود.. ».

هكذا تتوالى هذه الأقسام، مشكّلة الإطار الخارجى للحادثة العظيمة الأسى: حادثة الأخدود. وهى أقسام ذات ترابط خفى فيما بينها، ترابط يوائم بين كل منها من جهة، ويوحد بينها وبين جزئيات الأحداث المعروضة بإيجاز شديد إثرها من جهة أخرى. هذا الترابط هو عامل الزمن. ذلك أن القسم بالسماء بهذا الوصف « ذات البروج »؛ إنما يشير إلى جانب الحساب والمطالع وحركة الأفلاك، وأنها تجرى إلى أجل مسمى، وهو يوم البعث، ذلك اليوم الموعود، حيث يقوم الأشهاد، ويُنصب ميزان الحساب.

ولقد وصف هذا اليوم بـ « الموعود » تعريضًا بما وعُد به الجناة الظلمة من وعيد الانتقام نظير ما صنعوه فى تلك الحادثة، وتضمينا للتحديد الزمنى الذى سيقع حتمًا، وتُعرض فيه أحوال النعيم والعذاب فتكون مشهودة، ويحضره الملائكة والرسل والأنبياء وصالحو الأمم، وهم الشهود.

وتمضى بنا الآيات قصيرة سريعة، تعرض علينا فى اقتضاب جوانب من مشاهد المأساة: مأساة أهل الأخدود. وتتصدر هذه الآيات جملة دعائية هى « **قُتل أصحاب الأخدود** » صابة اللعنة والهلاك، ومشعرة بهول المأساة التى تكشف عن بعض جوانبها الآيات التالية بعدها.

ونسأل: أين جواب القسم بعد تلك الأقسام الثلاثة التى تصدرت السورة؟ إن هذا الجواب محذوف، وجاءت جملة الدعاء المذكورة فدلت عليه، وتركت للأذهان والأذواق تقديره فى ظل ما توحيه هذه الجملة الدعائية من معانى التنديد واللعن والوعيد.

وترسم آية «**النار ذات الوقود**» جانباً من الصورة المهولة، وهى ليست بنار فحسب، بل هى ذات وقود، أُعدت لها أكوام هائلة من الحطب ليلقى فيها كلما مالت إلى الخمود. وفى هذا كناية عن طول مدة التحريق والتعذيب وإمداد للذهن المتلقى ليتسع خياله، ويغرب فى تصور ضخامة النيران وحلكتها وقساوتها ورهبتها فى صدور الذين دفعوا فيها بأطفالهم ونسائهم وعجزتهم.

ثم تأمل هذه الإضافة المؤثرة: «**إذ هم عليها قعود**» وتخيل ما وسعك التخيل غلظة أكباد هؤلاء الطغاة الذين لم يكتفوا بالإيعاز لجنودهم لتنفيذ الجريمة الشنعاء، بل جلسوا على آرائكهم ومحفاتهم الفارهة يشاهدون فى استمتاع لئيم شاذ غريب، مصرع الأبرياء، ويتنسمون روائح أجسادهم التى تأكلها النيران المؤججة الهائلة. ولقد اختيرت التعدية بحرف الاستعلاء «عليها» للدلالة على الملازمة والتمكن، وحضور المشهد حتى نهايته.

وقفٌ عند لفظ «قعود» ولا تظنن أنها إنما جاء بها السجع لمراعاة الفاصلة الدالية ضمن السياق. فإن المتأمل الفطن يدرك دقة موقعها، وحسن اختيارها؛ لكونها تشير إلى أن أولئك الطغاة لم يشهدوا المأساة واقفين؛ لما فى الوقوف من الانشغال والعناء، بل شهدوها قاعدين، منعمين منسجمين. ومن هنا يتضح لنا مدى دقة التعبير القرآنى وجماله.

وتأتى آية «**وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود**»، تأكيداً لمعنى الآية السابقة، وتسجيلاً لإدانتهم بتلك الجريمة، وتنديداً بوحشيتهم وارتفاع الآدمية عنهم وهم يشهدون ذلك المنظر المفزع الرهيب.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن الآيات «قُتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود» تشكل خطًا نفسيًا حادًا، يأخذ فى الارتفاع المتوتر، فيعطى أبعاد الصورة الأدبية لهذه الواقعة الأليمة، ويوزع ظلالها الموحية، حتى إذا بلغت بنا هذا المبلغ، عادت إلى الاتجاه الهادئ المقابل، فتأتى آيتا: «**وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد**». إنه تقرير هادئ للحقيقة المرة، وتبيان للسبب والنتيجة. إن تلك النقمة الكبرى، والجريمة الجماعية النكراء، ما كانت بسبب خروج عن طاعة الحاكم فى أمر دنيوى، أو تأبٍ عن دفع جباية من الجبايات، أو كانت تآمرًا ضده، بل كانت للأسف نتيجة إصرار هؤلاء المظلومين على الاستمساك بالحق وطريق النور واتباع تعاليم المسيح عليه السلام.

وتأمل معى: «إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذى له ملك السموات والأرض». ففى التعبير بالمضارع «أن يؤمنوا» بدلاً من «آمنوا» استحضار لصورة صبر المؤمنين خلال فتنة الاضطهاد والجمع ثم السوق إلى مكان الأخدود، واحتمالهم لصنوف الألم الرهيب، وفيه ثناء عليهم ومدح لما بلغوه من عمق الإيمان وصدق العقيدة فى الله. وأما وصف اسم الجلالة بأوصاف العزة والحمد وامتلاك العوالم والإحاطة بعلم كل شىء، فهو للدلالة على أنه حقيق بأن يؤمن به، وأن يكفر بسواه، وأن يتحمل فى سبيله كل اضطهاد وعذاب.

وتتقابل الصورتان، ويمتزج الموقفان: أهل نجران الذين كانوا على دين المسيح الصحيح، والسابقون من المسلمين فى مطلع الدعوة فى مكة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

طغيان ذى نواس ملك صنعاء المتهود، وجبروت العلية من قريش الذين تكبروا على نداء الله، وانهالوا بوحشية على من بأيديهم من المستضعفين المسلمين.

إن ذنب أولئك وهؤلاء أنهم آمنوا حق الإيمان بالله العزيز الذى لا يُغلب، ولا يفلت ظالم من قبضته، ولا يرضى الاعتداء على أوليائه وأهل طاعته، الحميد الذى يُحمد على كل حال، والمحمود بذاته ولو لم يحمده العصاة، صاحب الملك والملكوت، الذى لا تخفى عليه خافية، وهو على كل شيء رقيب شهيد.

وتتوج جملة «والله على كل شيء شهيد» ذلك العرض المؤثر، مطمئنة المؤمنين الممتحنين فى الأخدود ثم فى مكة، بل فى كل عصر ومصر، أن الله عليم بهم، وأن الطغاة الظالمين الذين تكبروا على الله ولم ينقذوا رقابهم من النار بالتوبة والإنابة، سيوفون الحساب. «**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**».

ونقف عند «فلهم عذاب جهنم، ولهم عذاب الحريق» حيث جمع بين التأكيد المستفاد من التكرار، ومن تجديد الفائدة الذى يُشعر به العطف المقتضى للمغايرة. إنه جزاء مضاعف أو هو من نوعين مختلفين، وحدد الثانى منهما بالحريق ليكون من جنس الإحراق الذى فتنوا به الأبرياء فى الدنيا، غير أن إحراق الآخرة يفوق كل وصف، بل كل تخيل وتصور.

أما أولئك الأبرياء الممتحنون فى دينهم، والذين اختاروا رضى الله وجواره ورفضوا الإذعان للطغاة والإخلاد للحياة الأرضية الزائلة التافهة،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فإن موعدهم الجنة بما فيها مما لم ترعينٌ، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، وكفى برضوان الله عاقبة وجزاء.

وتستمر بنا الآيات خلال وحدة عضوية نامية، كل آية تضيف بعداً جديداً ضمن الإطار الكلى العام للسورة. هذه الآيات هى على هيئة تعقيبات سريعة متتالية يسلم بعضها إلى بعض فى تناغم معنوى ونفسى فذ آسر. هى تعقيبات تدور كلها حول الموضوع الأساسى للسورة، وهو قصة أهل الأخدود والتعريض بمواقف المشركين من قريش فى صدر الدعوة: من تقرير لموقف الخالق العظيم الرقيب المحصى، ومن تذكير بأقوام حقت عليهم سنة العذاب نتيجة ضلالهم وعنادهم، ومن تأكيد على إحاطة الله بالكافرين المكذبين، وفى الختام تقرير حقيقة القرآن وثبات حفظه وصونه.

إن سورة البروج التى سميت بهذا الاسم لتوحى إلينا وكأنها فلك تام بمداراته ومركزه، قطبه قصة أصحاب الأخدود، ومن حوله دوائر يضم بعضها بعضًا حتى تنتهى بمحيط شامل، هو الآية الأخيرة «**بل هو قرآن مجيد * فى لوح محفوظ**».

فإذا ما تجاوزنا الموضوع الرئيسى، انتقلنا خلال دوائر معينة متدرجة تقع فى أربعة أنساق على وجه التقريب، هى:

الأول: النسق المؤكد: ويضم «**إن الذين فتنوا المؤمنين...**» و«**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات..**» وإن بطش ربك لشديد و«**إنه هو يبدئ ويعيد**».

الثانى: النسق ذو الجملة الاسمية المجردة من التأكيد: ويشمل «وهو

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد » .

الثالث : النسق الاستفهامى : « هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود » ؟

الرابع : النسق الإضرابى : وفيه « بل الذين كفروا فى تكذيب * والله من ورائهم محيط » ثم « بل هو قرآن مجيد * فى لوح محفوظ » . إنه تنسيق ربانى محكم بديع . كثيراً ما يقرؤه أحدنا على عجل فلا يلحظ فيه شيئاً من أسراره، ولا يقف على بعض درره ومذاقاته .

فهل يمكننا . . الاقتراب من هذه الغاية ؟

إذا تأملنا النسقين الأول والثانى، وبحثنا عن السر فى تصدير جمل النسق الأول منهما بأداة التوكيد « إن »، وغيابها عن جمل النسق الثانى، نجد أن طبيعة المضمون مختلفة فى كل منهما .

فالمضمون فى الجمل الأولى يعرض لحوادث طارئة ومعان متحولة ومتغيرات من عالم الحياة والأحياء (الفاتنون المفتونون الأبرياء – الذين آمنوا وعملوا . . . . – البطش – الإبداء – الإعادة) إنها مواقف فيها حركة ترتبط بمركز الدائرة أى بصلب الموضوع . ونظراً لصلة البشر بهذه المعانى، وخصوصاً المخاطبين بهذه الآيات إبان نزولها وارتباطها بواقعهم الحى مباشرة، فقد اقتضى الأمر أن تساق آيات هذه المعانى مؤكدة لتطمئن النفوس الضعيفة وتثبت القلوب وتشد الأزر .

أما مضمون جمل النسق الثانى، فهو يقدم حقائق أزلية سرمدية، هى فوق التأكيد، وهى على الرغم من ارتباطها بجزئيات القضية الأساسية فى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مركز دائرة السورة، فهى صفات أعم وأشمل. إنها صفات فوق التحديد والتقييد، ولذا فلم توجد ضرورة لأن تقرن بمؤكد من المؤكدات.

ونعاود التأمل، وننعم النظر أكثر، فإذا بالتأكيد يفيد الجزم القاطع بمصير الفريقين: الفاتن والمفتون، ثم القطع الجازم كذلك بأن بطش الخالق الرقيب العليم هو أشد وأبقى من كل بطش بشرى. بل يأتى التأكيد مضاعفًا فى قوله «إن بطش ربك لشديد» – بإن واللام الداخلة على الخبر – وفى قوله «إنه هو يبدئ ويعيد» – بإن وإبراز ضمير الشأن؛ إشعارًا للنفوس المكلومة والقلوب الممتحنة بأن انتقام الله فوق كل انتقام، وإيعادًا بأن حق هؤلاء الأبرياء من أهل الأخدود ومن السابقين فى فجر الإسلام لن يضيع أبدًا. وهكذا فقد أفاد هذا التأكيد المضاعف معنى رائعًا وضروريًا فى هذا المقام.

ولننظر فى هذا الإسناد الحنون اللطيف فى كاف الخطاب «إن بطش ربك»: إن فيه إيناسًا للرسول الكريم عبر سنوات المحنة والمقاساة والتكذيب، بل لكل مؤمن يتلقى هذا الوحى الكريم بلسمًا فيه روح وحنو وتثبيت.

قوله «وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد»: إن كل اسم من هذه الأسماء الحسنى لم تأت على صيغة عادية بوزن «فاعل» (غافر، واد، ماجد، فاعل)، بل جاءت فى صيغ المبالغة: (الغفور، الودود، المجيد، فعال)، لتؤدى المعانى المناسبة لمقام الألوهية، المعانى التى هى فوق التحديد والتقييد، وفوق الزمان والمكان. وقد سيقت تلك الأوصاف

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الربانية القدسية بترتيب، واختيرت بانتقاء، لتصنع ما يشبه أن يكون تتميماً فنياً بينها وبين عدد من المعانى المتقدمة من السورة.

ونتأمل النسق الثالث، ونتساءل: ما السر فى مجيئه على سبيل الاستفهام، ولم يأت على نحو آخر من الأساليب؟

إن جملة «هل أتاك...» هى فى الواقع بمنزلة الدليل لمضمون جملة «إن بطش ربك لشديد». فبعد أن تقدم التعليل بجملة «إنه هو يبدئ ويعيد»، أضيف إليها دليل آخر هو جملة الاستفهام هذه. وإنما جاءت استفهاماً للفت الانتباه وشد الاهتمام إليها. وهو استفهام مستعمل فى صريحه وكنايته. فهو سؤال لمن لا يعلم بحديث أولئك المعاقبين من قوم فرعون وثمود ليتعرف خبرهم. وهو أيضاً تقرير وتذكير لمن بلغه حديثهم، ليستدل به ويتعظ ويتيقن.

وفى الختام نصل إلى محيط الدائرة، حيث نجد إيقاعين قويين جازمين يسوّران الصورة الكاملة لهذه السورة. إيقاعان فى كل منهما تقرير وكلمة فصل نهائى. وهو النسق الرابع الذى يضم جملتين تبدآن بحرف الإضراب «بل»:

«بل الذين كفروا فى تكذيب * والله من ورائهم محيط».

«بل هو قرآن مجيد * فى لوح محفوظ».

إن «بل» الأولى هى إضراب عما أفاده الاستفهام المتقدم من الإنكار على المشركين الذين طغوا وتكبروا على الله ورسله وعباده المؤمنين. وفائدة الإضراب هنا توكيد حقيقة راسخة وصفة ملازمة لكل الكافرين قديماً

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وحديثًا، وفى كل زمان ومكان، وهى أن المعاندة والتكذيب وأخذ العزة بالإثم طباع أصيلة فيهم. وبمقدار ما فى حرف الجر «فى» من ظرفية مجازية تشير إلى تمكن التكذيب من نفوس المشركين حتى لكأنه يحيط بهم ويغطيهم، نجد تعبير «من ورائهم» يقابله فى نهاية العبارة بجزمه وقوته، وتقدمه على الخبر «محيط»، ليعطى عمقًا وبعدًا بل أبعادًا لمعنى سيطرة الله ودقة إحاطته وترصده للكافرين بكل سبيل، وهم عن ذلك غافلون.

وتأتى «بل» الثانية للإضراب على تكذيبهم المستفاد من قوله «فى تكذيب»، وضمير «هو» عائد على المكذب به المستفاد من لفظ «تكذيب»، أى بل ما كذبوا به إنما هو قرآن مجيد، أى عظيم القدر والنفع، على الرغم من دعاويهم الباطلة ورميهم إياه بأنه أساطير الأولين أو قول كاهن، أو تخليط مجنون، أو افتراء كذاب.

والمجيد هو الرفيع الكريم العريق، وأى كلام أحق من القرآن بهذا الوصف وبكل أوصاف الشرف والسمو والكمال؟ وهو فى لوح محفوظ، لوح لا ندرك نحن البشر طبيعته، لأنه مخلوق غيبى لا يعلم حقيقته إلا الله أو من شاء له من ملائكته. ما يعنينا هنا هو ظل هذا المعنى وإيحاؤه فى القلوب المؤمنة؛ وهو أن هذا القرآن مصون ثابت، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يناله برعاية الله تحريف، ولا تبديل، مصداقًا لوعده سبحانه «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون». وفى كل هذا تنويه بأن القرآن غنى عن تصديقهم، ولن تنال منه أوهامهم ولا تخرصاتهم شيئًا. وهكذا يقفل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

محيط الدائرة، متممًا مضمون هذه السورة، ومتوجًا إياها تتويجًا مفحمًا يبهر الألباب ويأسرها.

أما عن الجانب الإيقاعى داخل هذه السورة، فإن أول ملاحظة تشدنا هى قصر الآيات، شأن معظم السور المكية، تماشيًا مع القدر المراد من المعانى تصريحًا وتضمينا. وتشترك أكثر بتلك الآيات فى فاصلة دالية رائعة، وإلى جوانبها فواصل من مخارج قريبة جدًا إليها، مثل الجيم فى «البروج» فى أول السورة، والباء والطاء والظاء فى «تكذيب – محيط – محفوظ» عند نهايتها. وتتسم هذه الأحرف كلها – عدا الظاء – بوقفة مقلقلة تحفز الإحساس المتلقى وتؤكد المضمون المراد تلقيه.

إن الآيات التسع الأولى يوحدها إيقاع نغمى والى. وأمل الحكمة فى اضطراد هذه الفواصل القصيرة، هو عرض تلك اللقطات الخاطفة المثيرة من مشاهد حادثة الأخدود. وقد صور هذا اللون من الإيقاع الجو النفسى والالتحام العضوى للقصة المضروبة. فإذا ما تقدمنا بعد ذلك فى السورة، وجدنا خواتيم الفواصل مختلفة عن الآيات السابقة، وهى فى ذاتها توائم تمامًا مضمونها.

«إن الذين فتنوا...» ثم «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات....» هما من التعقيبات التالية عن الموضوع الأساسى. وقد سُبقتا بروح مخالفة للسياق المتقدم عليهما، تنويعًا للإيقاع المضطرد، وشدا لانتباه السامع، ولفتًا إلى نوع الجزاء المعد لكل من الفريقين. وهاتان الآيتان استئناف لجواب سؤال ما يبرح المخاطب بالآيات التسع الأولى أن يستوعبها حتى

يجيش فى خاطره ذلك السؤال متطلعًا إلى نوع عاقبة الذين صنعوا مأساة الأخدود.

حتى إذا وقف المخاطب على ذلك وهدأت نفسه خلال تيْنك الآيتين الطويلتين نسبيًا، بعد صدمات الآيات الأولى التى وضعت مشاهد المأساة، ترجع به السورة ثانية إلى فواصل قصيرة كالأولى، ذات إيقاع متحد هادئ وئيد، يقوم مضمونها على التقرير والتأكيد والعرض لحقائق الأوصاف الإلهية. حتى الاستفهام، فإنه يمضى على الوتيرة نفسها، متحداً فى الإيقاع الموحد مع سائر الآيات.

ولقد أوجبت طبيعة الإضراب الذى صدرت به جملتا النهاية أن تكون فاصلتاهما ذوات جرس وظل موسيقى يختلفان عما تقدمهما. ولما كان مضمون الجملتين إضرابًا عن معان تقدمت فى السياق، فقد صار لزامًا أن تكون القافية أو الفاصلة فيهما إيقاعًا جديداً مناسبًا لذلك المضمون المقرر النهائى.

ليس هذا فقط، بل تحتم أن تكون فاصلة الجملة الختامية مختلفة شيئًا ما عن سابقتها (محيط – محفوظ)، تحقيقًا لمعنى «بل» الثانية التى ارتقت بالمعنى لتتويج آيات السورة كلها، وتقرير الحقيقة الكبرى: حقيقة الكتاب المنزل، وحقيقة عظمته وسموه وكماله، وحقيقة صونه فى اللوح المحفوظ، ومن ثم صدق ما حكاه عن أهل الأخدود، وصدق ما جاء به فى سائر سوره وآياته المحكمة «وبالحق أنزلناه، وبالحق نزل».

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

شرح المفردات:

الكلمة	معناها
والضحى	الواو للقسم، والضحى: امتداد النهار، وقيل أول النهار حين ارتفاع الشمس.
سجى	سكن وهدأ.
وما قلى	وما أبغضك أو كرهك.
وللآخرة خير لك من الأولى	أى ما أعده الله لك من النعيم فى الآخرة خير لك من هذه الحياة الدنيا. وقيل: إن نهاية أمرك وما فيه من النصر والفوز ورفعة الشأن خير من بدايته.
عائلاً	فقيراً
السائل – فلا تنهر	السائل: المتسول لا تزجره ولا تطرده.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

التحليل الأدبى:

نزلت هذه السورة عقب انقطاع الوحى عن النبى ﷺ فى أول ابتداء بعثته، بعد أن نزلت عليه ثمانى سور.

وكان هذا الإبطاء رفقًا به عليه الصلاة والسلام كى تستجم نفسه. غير أن النبى خشى أن يكون الله قد ترك الوحى إليه، أو غضب عليه. حتى لقد صرح - كما روى - بخوفه لزوجه خديجة، وردد المرجفون قائلين: «ودع محمداً ربه وقلاه»، فألح القلق عليه، وشعر بالوحشة، فجاءت هذه السورة تأنيساً له وتطميناً وترويحاً، وردًا على ألسنة المتخرصين.

لقد أكدت الآيات هنا أن فتور الوحى ليس قطعًا للوحى ولا قلى من الله، وجاء هذا التأكيد بالقسم مع الوعد بأن آخر أمر رسول الله خير من أوله.

ثم عددت الآيات مظاهر عناية الله به وقت صباه، ووقت فتوته ووقت رجولته، ثم أمرت بشكر نعم الله عليه بما يناسبها.

أما المناسبة بين القسم والمقسم عليه، فهى الإشارة إلى أن قطع الوحى عنه مدة هو لطف بالنبى، كما أن قطع النور بالليل لطف بالبشر وأنه قطع يعقبه عود وازدياد، كما أن الليل يعقبه الصباح، ثم انتشار النور، وشرف هذين الوقتين حصل من نزول الوحى على النبى ﷺ فيهما.

إن إشراق الوحى الإلهى على قلب النبى أول مرة، وانبلاج مبعثه عليه الصلاة والسلام هو بمنزلة تألق الضحى الذى ينطلق فيه الأحياء بالحركة والنشاط والعمل، وإن ما عرض من إبطاء الوحى ما هو إلا بمنزلة الليل إذا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هدأ وسكن، تهجع فيه النفوس وتستجم لتواصل سعيها الدؤوب مع إطلالة الضحى الجديد لليوم التالى.

لقد جاء المقسم عليه نفيًا للقلق والحيرة، ودفعا للحزن والوحشة وشرحا لصدر رسول الله ﷺ، وتبشيرًا إياه بحسن العاقبة ودحضا لأقوال المرجفين.

لقد أشاع التعبير الكريم هنا جوًا من الحنان اللطيف والرحمة الوديعة، والرضى الشامل، والشجى الشفيف:

«والضحى، والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى».

يقسم الله سبحانه بهاتين الآيتين الرائعتين الموحيتين، فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس، ليخلع على المتلقى أنسًا وطمأنينة وبشرى إيماء منذ مفتتح السورة أنك – يا محمد – محفوف بأنس الوجود، وبلطف الموجود، وأنك من ثم غير مجفو ولا مهجور، ثم يأتى التوكيد المباشر: «ما ودعك – وللآخرة – ولسوف يعطيك». إنه ربك وأنت عبده المنسوب إليه، المضاف إلي ربوبيته، وهو راعيك وكافلك، إنه ليدخر لك ما يرضيك من التوفيق فى دعوتك، وإزاحة العقبات من طريقك وظهور الحق على يديك.. وهى الأمور الجليلة التى كانت تشغل باله –عليه الصلاة والسلام– وهو يواجه التكذيب والصد والكيد والأذى.

وزيادة فى تأكيد هذه البشرى، وتقوية لاطمئنان النبى بما وعده ربه، تمضى الآيات مستحضرة فى خاطره – عليه السلام – جميل صنع ربه به،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومودته له، وفيضه عليه، فتأتى هذه الاستعادة الممتعة على هذا النحو البديع:

«**ألم يجدك يتيمًا فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى**».

تأمل يا محمد ماضى حياتك، وواقعك الحاضر:

هل أهملك ربك – حتى قبل إتحافك بالنبوة؟

ألم تحطك رعايته عندما كنت يتيمًا؟

ألم تدركك هدايته عندما كنت حائرًا تتأمل واقع الحياة وضلال الناس؟

ألم يغمر عطاؤه فاقتك ويغنيك بما يسر لك من خيرات؟

لقد ولدت يتيمًا فيسر لك جدك فتولاك، وعطف عليك القلوب صغيرًا وكبيرًا، حتى قلب عمك أبى طالب وهو على غير دينك.

ولقد كنت فقيرًا ترعى الغنم، فأغنى الله نفسك بالقناعة، كما أغناك بكسبك، وبمال أهل بيتك (خديجة رضى الله عنها) عن أن تحتاج أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء.

ثم لقد نشأت فى بيئة جاهلية مضطربة التصورات، فاسدة العقائد منحرفة السلوك، فلم تطمئن روحك إليها، ولم تزج بنفسك فى ألوان فسوقها، وبقيت كأنك شجرة الضال متفردة منعزلة عمن سواها.. حتى لقد هجرت حياة الناس إلى غار حراء، تتبتل وتتأمل ملكوت ربك، وتهفو للحقيقة الكبرى، فمنّ الله عليك بالنبوة والرسالة، وأخرجك من حيرتك

الطويلة إلى الحق واليقين.

وأى نعمة أجل فى الوجود من هذه النعمة، وأى شرف أسمى من شرف هذا المن وهذا الإتحاف، وهذا الاصطفاء.

كيف ترقى رقيك الأنبياء

يا سماء ما طاولتها سماء(*)!

لقد جاء هذا التذكير الكريم باعثًا لذكريات شجية غالية عاشها الرسول الكريم، ذكريات تربط حاضر الرسالة بماضى الرسول نفسه، وتؤكد تأكيداً أن العناية الإلهية مستمرة شاملة، مبشرة واعدة، حتى يظهر أمر الله، وتنتشر رايات التوحيد بين العالمين.

وبعد ذلك الاستعراض الذى عدد أبرز الصعاب التى واجهت النبى الكريم قبل بعثته وهى: اليتم، والعيلة: (الفقر)، والحيرة الفكرية الحادة: «الضلال» استغل القرآن مناسبة هذا التركيز وما أحدثه فى نفس الرسول عليه الصلاة والسلام من إيحاءات وأشجان، لينبه إلى ضرورة العناية بظواهر اليتم والفقر والضلال عن سبيل الله فى حياة المجتمع المسلم، وكفران نعماء الله وليحدد طابع المعاملة ولون المعالجة لها:

«**فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث**».

إنه توجيه إلهى سام إلى مبدأ التراحم والتكافل الاجتماعى والتربية الإيمانية لمعرفة الله، إنه توجيه إلى إكرام اليتيم والنهى عن قهره وكسر خاطره، وإلى إعطاء السائل مع الرفق به، وهى أمور لم تعرفها جاهلية

(*) البيت للشاعر أحمد شوقى من قصيدة فى مدح الرسول الكريم.

العرب يومئذ، ولم تأبه بها جاهلية العصور الحديثة.

إن التحدث بنعمة الله – وبخاصة نعمة الهدى والإيمان – هو صورة من صور الشكر للمنعم سبحانه، يكملها البر بعباده والرفق بهم، وهو المظهر العملى للشكر، والحديث الصامت الإيجابى المطلوب.

ليس هذا فقط، بل التحدث بنعمة الله معناه أيضًا العمل على نشر هديه بين شعوب الأرض بجميع ما يعرفه العلم من وسائل النشر والإذاعة والإقناع.. كما أن معناه إظهار أفضال الله على الإنسان فى لباسه وشرابه ومسكنه دونما إفراط أو تفريط.

«والضحى، والليل إذا سجى»

إن القسم فى القرآن غالبًا ما يكون لونًا من ألوان البيان الغنى للمعانى بالأشياء الحسية. وما يلمح فيه من تعظيم للمقسم به، إنما يقصد به قوة اللفت وشدة الانتباه، على أن تراعى فيه الصفة التى تناسب الموقف. وكذلك هو الحال معنا فى مطلع هذه السورة، إذ جاءت بيانًا لصورة حسية وواقع مشهود، مهد لموقف مماثل غير حسى ولا مشهود: هو فتور الوحى بعد إشراقه، وتجليه على النبى الكريم عليه السلام. وهذا الاختيار القرآنى لهذين الآنين من آناء الليل والنهار وهما: الضحى، ثم الليل إذا سجا، هو اختيار للتقابل الغنى بين مادية هذين الظرفين من جهة، ومعنوية سطوع الوحى، ثم فتوره مدة من الزمن من جهة أخرى.

ونتأمل هذا الإيقاع البديع الرتيب: الضحى – سجا – قلى – فترضى – فآوى – فهدى – فأغنى، وهى رؤوس تلك الآيات المنسابة فى سياق المعنى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المراد، فلا نأنس فيها تكلفاً، ولا نحس تصنعاً أو عنتاً فى استجلابها لتشكل تلك الوقفات الموقعة الجميلة التى تنعكس فى نفس المتلقى ظلالاً هادئة، وسكينة وادعة.

قد يفسر بعضهم هذا التجانس فى الفواصل ورؤوس الآى، بأنه مقصود لإبراز هذا التناغم والتناسق الصوتى، وهو – من ثم – منسق على هذا المنوال: الفعل (سجا) جعل ماضياً ليناسب (الضحى) ومفعول (قلى) محذوف ليشاكل ما قبله، والاكتفاء بالفعل فى جملة (فترضى) مع حذف ما يتعلق به ويترتب عليه، ليوائم الفواصل السابقة له، غير أن هذه دعوى مرفوضة، والدليل موجود فى السورة نفسها عند نهايتها. يقول سبحانه:

«فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث» فعلى حين تشابهت الفاصلتان (تقهر – تنهر) جاءت الفاصلة الأخيرة مغايرة تماماً لهما، ولو كان الأمر استحباباً للسجع فى حد ذاته لساق القرآن لفظاً آخر بدلاً من (فحدث) يفيد معناه، ويوجد الإيقاع السجعى مع ما تقدمه.

ثم لنتأمل المجموعتين السابقتين من تلك الفواصل الأولى: (الضحى – سجا – قلى – الأولى – فترضى – فآوى – فهوى – فأغنى) ثم الثانية (فلا تقهر – فلا تنهر – فحدث). فإذا بنا نقف على سر آخر هو أنه: لما كان السياق يمضى فى سرد وتقرير وتعداد، أتت فواصله متشابهة وذات إيقاع موحد رتيب، حتى إذا انتقل الحديث إلى توصية وتوجيه وتشريع اتخذ الأسلوب منهجاً مغايراً فيه تفصيل «بأما» وفيه اختيار لفواصل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تناسب المعنى وتخضع له، اثنتان منها متشابهتان والثالثة مختلفة. وكأن فى اختلاف هذه الثالثة عن أختيها إحداثًا لإيقاع جديد ينبه المتلقى، أو يلفته فجأة إلى معناه المقصود منه فى هذه الخاتمة الكريمة.

ونقف أمام ما أُثبت وما حذف خلال تلك الآيات الحكيمة: إن قوله (إذا سجى) لم يأت حشواً، ولا سيق سدى، بل لحكمة لا يجدها إلا من تدبر وتأمل. إن الليل هنا لم يسق على إطلاقه بوحشته وظلامه، بل حدد بوصف من أوصافه يناسب الصورة الأدبية وأبعادها النفسية التى ترسمها هذه الآيات. إنه الليل الساجى الذى يرق ويسكن ويصفو، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف والتأمل الوديع، ليل يشبه جو اليتم والعيلة، ليل وادع يقابل ذلك الضحى الصاخب بحركة الأحياء وانطلاقهم للسعى الدؤوب.

أما قوله (وما قلى) ففيه حذف للمفعول، لدلالة قوله (ودعك) عليه، وهو حذف اقتضته حساسية معنوية بالغة الدقة واللطف والإيناس، وهى تحاشى خطابه تعالى لحبيبه المصطفى: ما قلاك، لما فى القلى من الطرد والإبعاد وشدة البغض.

أما التوديع فلا شىء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوى فيه يؤذن بالفراق على كره، مع رجاء العودة.

وزيدت لام الابتداء فى (وللآخرة) و(لسوف يعطيك) وهى فيها لتأكيد الخبر، وحذف مفعول (يعطيك) لقصد التعميم فيما يرغب فيه من الخير والنصر وظهور الدين، ثم جىء بفاء التعقيب فى (فترضى) دون

www.alukah.net
شبكة الألوكة

استخدام (حتى) للإشعار بكون الإعطاء، معجل المنفعة واضحها.

وسيق الكلام فى (ألم يجدك..) مساق التقرير بالاستفهام لأن المقصود التعريض بتقرير السامعين من المعاندين، فإنهم يعلمون ذلك، فما بهم إلا أن يتذكروا ويعتبروا به.

أما حذف مفاعيل (فآوى – فهدى – فأغنى) فلأنه واضح جلى على أن فى حذفه إطلاقًا له وإفساحًا لكثير من المعانى لتتضمنه.

وقد وفر هذا الحذف –وإن لم يكن مراداً فى ذاته – تماثلاً إيقاعيًا لهذه الفواصل المتشابهة.

ولقد تقدمت المفاعيل الثلاثة فى قوله: (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث).. تقدمت على عواملها للاهتمام والتوكيد.

ولقد قدم الله النهى عن قهر اليتيم ونهر السائل، على التحدث بنعمته تعالى. يقول الفخر الرازى فى ذلك: «إن الله أخر حق نفسه وهو الشكر، وقدم حق اليتيم والسائل، لأنه غنى وهما محتاجان».

وتقديم حق المحتاج أولى، كما لاحظ اعتباراً آخر، وهو «أنه تعالى وضع فى حظهما الفعل، ورضى لنفسه بالقول».

قالت بنت الشاطئ: «وهو ملحظ دقيق بلا ريب، يلفت إلى سر من أسرار التعبير فى البيان المعجز، وإن كنا فى التفاتنا إلى ترتيب الآيات، نلمح سراً آخر رائعًا، وهو أنه تعالى نبه رسوله الكريم إلى أن إصلاح الجماعة يأتى فى المنزلة الأولى من التعبير والتقدير قبل القيام بالواجب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الشخصى المنوط بالفرد نفسه.

ولما كنا قد سلمنا أن النعمة هنا عامة شاملة، وأن أجل ألوانها وأسمى أنواعها هى نعمة الرسالة والاصطفاء، فقد صار لزامًا أن التحدث بهذه النعمة يقتضى حسن تبليغها وإشاعتها بين العالمين، وهى مسئولية النبى المرسل، ثم هى أمانة أمته ومسئوليتها من بعده إلى يوم الدين.

هذه هى سورة الضحى، بأبعادها المعنوية، وظلالها النفسية وتوجيهاتها التربوية، آيات فيها شفاء وهدى وموعظة للمتقين، ومع أنها ترتبط تاريخيًا بحادثة فتور الوحى عن النبى ﷺ، فهى متجددة فى كل حين، نابضة محركة للإحساس، حتى لكأنها تنزل على المؤمن القارئ المتدبر فى كل قراءة، فتبعث فى حنايا نفسه مزيجًا من الإحساسات، تربط عالمه الحاضر بتلك الظروف التى عاشها رسوله الكريم قبل نزولها، ثم حين نزولها عليه، فتذكى من يقينه، وتشد من أزره، وتضىء له جنبات الحياة.

من بلاغة القرآن الكريم

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾

شرح المفردات:

الكلمة	معناها
والعاديات	الواو للقسم، والعاديات هى الخيول، فى أقرب الأقوال.
ضبحا	الضبح: أصوات الخيول عند عدوها بسرعة.
والمغيرات صبحا	المهاجمات ديار الأعداء وقت الصبح للمفاجأة.
الموريات قدحا	الإيراء: إخراج النار بالقدح، أى أن الخيل تخرج الشرر حين تضرب بسنابكها الصخر عند جريها.
فأثرن به	فتحركن وهيجن.
نقعا	غبارًا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أقفاله:

أ – إن الإنسان لربه لكنود – وإنه على ذلك لشهيد – وإنه لحب الخير لشديد.

ب– أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور – وحصل ما فى الصدور – إن ربهم بهم يومئذ لخبير.

المجموعة أ – ختمت فواصلها بالدال.

أما المجموعة ب – فختمت فواصلها بالراء.

وعلى حين أن الفاصلة الأولى فى أ– يسبقها مد واوى (لكنود)، والفاصلتين الأخريين يسبقهما مد يائى: (لشهيد – لشديد)، نجد أن الفاصلة الثالثة فى ب– يسبقها مد يائى (لخبير) والفاصلتين الأولى والثانية يسبقهما مد واوى (القبور – الصدور) وهو تناسق وتقابل رائعان، يمضيان فى سهولة وعفوية وتناغم، ويمتزجان بطبيعة المعانى الماضية مع السياق.

إن هذا التشكيل الإيقاعى الملون يرتبط ارتباطًا عفويًا بتلك المعانى التى تقدمها الآيات، ويتسق معها، فينعكس فى وجدان المتلقى فيهزه ويشجيه.

أما إطار تلك المعانى، وهذه الإيقاعات، فهو إطار يناسب الجو الصاخب؛ سواء فى حركة العاديات، أو تقريرية الجحود والعصيان أو فجائية التبعثر، وتحصيل النتائج وتقرير المصير، وهو إطار يقابل فى تمكن وروعة بين أبعاد الموضوع وعباراته.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ونتأمل دقة اللغة فى تصوير حركة هذه المعانى وإيقاعها: إذ اقتضت سرعة مشاهد النسق الأول أن تتوالى أجزاؤها معطوفة بالفاء التى تفيد الترتيب:

فالموريات – فالمغيرات– فأثرن – فوسطن؛ تجسيداً للسرعة التى هى من شأن الغدو والقدح والإغارة والإثارة والاقتحام وسط حشود المعركة. حتى إذا جئنا إلى النسق الثانى، إذا بمعانيه تقتضى التقديم والعرض فى صورة من صور التأكيد، هى هنا «إن» واللام المزحلقة تنبيهاً إلى هذه الحقائق المقدمة وتأصلها فى الإنسان، وتركيزاً عليها ولفتاً للنظر إليها لتؤخذ مأخذ الجد، ثم إشارة فى نهاية السورة إلى تقرير علم الله بخلائقه ومعرفته بخوافى سرائرهم فى ذلك الموقف الرهيب.

ونقف أمام فعلى (بُعثر) و(حُصِل) بما فيهما من نذير صادع وزجر رادع، حيث وردا مبنيين للمجهول، صرفاً للذهن إلى الحدث نفسه وتركيزاً للانتباه إليه. ونتأمل مأخوذين صورتى البعثرة والتحصيل، بعثرة يخرج بها الأموات خروج النبات وقد شق التراب من حوله، وتحصيل هو الضبط والإخراج والإشهار لأسرار القلوب وموقفها من الله.

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾: يقسم الله سبحانه وتعالى بخيل المعركة، ويصف حركاتها على ما كان يألفه المخاطبون بالقرآن لأول مرة.

والقسم بالخيل فى هذا الإطار فيه إيحاء قوى بحب هذه الحركة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والنشاط لها، بعد الشعور بقيمتها فى ميزان الله، وتأكيدها من لدنه سبحانه.

ذلك هو المقسم به، أما المقسم عليه، فهو حقيقة فى نفس الإنسان حين يخوى قلبه من الإيمان.. حقيقة ينبهه القرآن إليها، ليجند إرادته لكفاحها، لأنه سبحانه يعلم عمق وشائجها فى نفس هذا الإنسان وثقل وقعها فى كيانه: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

هذه فطرته، وهذا طبعه، ما لم يخالط الإيمان قلبه، فيغير من تصوره، وقيمه وموازينه واهتماماته، وهى معان أكدها القرآن كثيراً وبمختلف الأساليب، وأقرب الأمثلة مكاناً من هذه الآيات سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

ويندفع الاستفهام الإنكارى التعجبى: «**أفلا يعلم إذا بُعثر ما فى القبور، وحصل ما فى الصدور**»؟! موقظاً السادرين فى كنودهم، المدبرين عن هدى ربهم، الغارقين فى حبائل شهواتهم.

إنه إيقاظ إلى حقيقة مفزعة: بعثرة لما فى القبور، بكل ما فى هذا التعبير من إيحاءات وظلال فى النفس، ثم تحصيل لأسرار الصدور وحقيقة عقيدتها، أفلا يعلم الإنسان آنذاك ماذا سيكون فى هذا الموقف الرهيب؟

وينتظر المتلقى وصفا وتفصيلاً، غير أن حكمة الموقف اقتضت عدم الإبانة والإعلام، ذلك ليذهب العقل كل مذهب، وتتصور النفوس ما

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أمكنها التصور. وتلك هى بلاغة القرآن فى الحذف والاختصار الذى يفوق كل إبانة وتفصيل.

وتختتم السورة تلك الإثارة باستقرار ينتهى إليه كل شىء، ويتحدد لديه كل مصير: «**إن ربهم بهم يومئذ لخبير**».

أجل، إن الله خبير بهم خبرة هى فوق حدود الزمن من ماضٍ وحاضر ومستقبل، لكن لهذه الخبرة «يومئذ» آثاراً هى التى تثير انتباه الناس فى هذا المقام. إنها خبرة وراءها عاقبة، وتحديد للمصير النهائى الخالد: النعيم أو الجحيم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفهرس

الموضوع	الصفحة
– سورة الحاقة	٥
– سورة البروج	٣٧
– سورة الضحى	٥٣
– سورة العاديات	٦٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

هذا الكتاب منشور في

www.alukah.net
شبكة الألوكة
شبكة الألوكة - قسم الكتب